

المسيرة الحضارية للملح صيفاقس Syphax (220ق.م-202ق.م) حاكم مملكة الماسيسل

أ. خالصة مضوي،

أستاذة مساعدة بكلية العلوم، قسم التاريخ،
معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية،
المركز الجامعي معسكر

نفتقد للمعلومات التي تساعدنا على تحديد تاريخ وظروف تولي صيفاقس "Syphax" لعرش مملكة الماسيسل، ذلك أن أولى الأخبار التي وصلتنا تعود إلى بداية البونية الثانية (218 ق.م)، وهي تتحدث عن قبائل الماسيسل، لكنها لا تشير إلى اسمه، إذ يذكر بوليبيوس "Polybius"⁽¹⁾ أن الماسيسل الذين جندهم القائد حنبل "Hannibal" بين سنتي (219 - 218 ق.م) كونوا جزءا من الجيش القرطاجي لمحارب بإسبانيا، وأشار تيتوس ليفيوس "Titus Livius"⁽²⁾ إلى هذا الملك في سياق حديثه عن الحرب التي اندلعت بينه وبين الدولة القرطاجية.

— هزروف وملابسات تولي صيفاقس الحكم:

أمام الغموض الذي يطغى على نصوص الكتاب القدامى حول بداية حكم صيفاقس، اختلف مؤرخو العصر الحديث حول تاريخ تربيعة على العرش بين من يقترح سنة 220 ق.م⁽³⁾، وبين من يرجع سنة 213 ق.م⁽⁴⁾.

وقد تمت المسكوكات صورتين مختلفتين لهذا الملك، إذ يظهر على بعض نقوده — التي تشبه إلى حد كبير نقود ملوك موريطانيا — برأس غير متوج وشعر قصير ولحية شكلا حادا عند نهايتها⁽⁵⁾، بينما نلاحظه على بعضها الآخر برأس متوج وشعر مجعد ولحية تأخذ شكلا دائريا⁽⁶⁾، كما كتب اسمه بحروف يونية بصيغة اسم المجرور "س ف ق ه م ل ك ت= HMMLKT SphQ" بمعنى صيفاقس سيد المملكة. ويعتقد كامبس "G.Camps" أن اسمه مشتق من اسم الإله صوفاقس "Syphax" ابنة الإله هرقل "Herculus" والإلهة طنجة "Tinga"⁽⁷⁾.

سياسته الداخلية :

حكم صيفاقس "Syphax" مملكة الماسيسل التي ضمنت وسط وغرب الجزائر، وكانت أراضيها خلال القرن الثالث قبل الميلاد، تمتد من واد ملوية (Mulucha Flumen) غربا، إلى رأس بوغارون (Pormontorium Metagonium) شرقا، - والواقع شمال شرق مدينة قسنطينة (Cirta) - ثم اتسعت شرقا في سنة 205 ق.م إلى غاية مدينة الكاف (Sicca Veneria) - الواقعة على الحدود مع الدولة القرطاجية - نتيجة احتلاله أراضي مملكة الماسيل المجاورة، أما حدودها الجنوبية فقد بلغت مدينة مداوروش (Madauros) - بولاية سوق أهراس - والواقعة بأراضي قبائل الجيتول⁽⁸⁾.

اتخذ صيفاقس "Syphax" من تاكمبيرت (Siga) - بولاية تموشنت - عاصمة له (9)، كما جعل من مدينة قسنطينة (Cirta)، في بداية سنة 203 ق.م عاصمة ثانية (10)، هذه المدينة التي اختلف المؤرخون حول أصولها، بين من يعتبرها مدينة ما سيسلييه (11) وبين من يرى أنها من المدن الماسلية التي شلمتها توسعته سنة 205 ق.م (12).

كان أول ملك ضرب عملة نقدية ببلاد المغرب القديم، وهي عبارة عن قطع نقدية برونزية، نقشت على وجهها صورته واسمه باليونانية، وعلى الظهر صورة فارس على صهوة فرسه (13)، وقد أوحى التشابه الموجود بينها وبين تلك القطع الفضية التي ضربها ابنه فرمينيا "Vermina"، بفرضية مفادها أنها سككت في حياة هذا الأخير، ولهذا لا تستبعد أن يكون فرمينيا (14) قد أشرك في الحكم تهيئاً لممارسته (15) فيما بعد، وقد كان لصيفاقس ابن ثاني، غير أننا نفتقد لمعطيات تشير إلى إشراكه في الملك.

سياسته الخارجية :

تميزت سياسته الخارجية بتوسعته ضد جيرانه الماسيل منذ 205 ق.م، وربطه علاقات مع القوى القرطاجية والرومانية المتصارعة على السيادة في البحر الأبيض، بحيث شارك في وقائع معارك الحرب البونية الثانية (218 ق.م - 201 ق.م) سواء في اسبانيا إلى جانب الرومان منذ سنة 211 ق.م، وإلى جانب القرطاجيين، بعد انتقال الحرب إلى بلاد المغرب القديم في ربيع سنة 204 ق.م.

أ- علاقته بالجمهورية الرومانية :

أما علاقته بالجمهورية الرومانية فهي ترجع إلى سنة 211 ق.م، حين استغل الرومان الحرب التي اندلعت بينه وبين قرطاجة 213 ق.م للتحالف معه، وأرسلوا ثلاثة من قادتهم المتواجدين باسبانيا إليه، فقبل صيفاقس "Syphax" بصدافتهم وطلب منهم أن يتركوا أحد قادتهم المدعوستاتورئوس "Q.Statorius" لتدريب الجيش الماسيسلي على الطرق الحربية الرومانية (16)؛ غير أن غزال "S.Gsell" يشكك في المهمة التي بقي من أجلها هذا الأخير طالما نتائج تدريب الجيش الماسيسلي لم تظهر طيلة المعارك التي خاضها الملك سنة 203 ق.م، ويرى محمد البشر شينتي أن الرومان لم يطمئنا له واشتروا عليه بقاء أحدهم كسفير لهم في المملكة (17).

تجسد هذا التحالف في توجه صيفاقس "Syphax" على رأس جيش إلى اسبانيا ليشترك في الحرب الدائرة بين الرومان والقرطاجيين، وهناك حدثت أول مواجهة له مع ماسينيسا "Massinissa" ابن غايا "Gaia" ملك الماسيل، الذي أرسله والده سنة 212 ق.م على رأس فرقة ماسيلية لمساعدة القرطاجيين. وفي سنة 210 ق.م أرسل الرومان ثلاثة من ممثليهم ألا وهم بوليوس "P.Popullius" وبوتليوس "Poetelius" وجينكيوس "L.Genecius"، يحملون هدايا لصيفاقس "Syphax"، تمثلت في عباءة، قميص ارجواني، كرسي من العاج، كأس من الذهب وهدايا أخرى لشخصيات ماسيلية مقربة منه (18). والظاهر أن مجالات التعاون لم تقتصر على تقديم الخبرة

للعسكرية الرومانية والهدايا، وإنما تعدتها لتشمل مساعدته على سك العملة(19)، إذ توصل بعض الباحثين إلى نتيجة مفادها أن مجموعة بقوة المتقنة الصنع قد ضربت في ورشة سك عملة رومانية بالجنوب الاسباني.

ويذكر تيتوس ليفيوس "Titus Livius" أنه في سنة 206 ق.م التقى صدفة كل من القائد الروماني سيكبيو "P.Scipio" والقائد القرطاجي صدر بعل "Hasdrubal"، واجتمعا في ضيافة الملك صيفاقس "Syphax" في عاصمته تاكمبريت (Siga)، فطرح عليهم موضوع إنهاء الحرب القرطاجية الرومانية، فأجاب سيكبيو "P.Scipio" بأنه لا يمكن أي عداوة شخصية للقائد القرطاجي، لكنه لا يستطيع البث في قضية يرجع الحل والعقد فيها لمجلس الشيوخ بروما(21).

ويذهب كل من كلود نيكولي "C.Nicolet" وجيهان ديزانج "J.Desanges" إلى أن الملك الماسيسيلي أراد باحتضانه هذا اللقاء أن يخلق نوعا من التوازن بين القوتين الرومانية والقرطاجية لكنه فشل في مساعده(22)، وقد أسفر هذا اللقاء عن تجديد عقد التحالف بين سيكبيو "P.Scipio" والملك صيفاقس "Syphax"(23)، غير أنه وعلى الرغم من الانتصارات التي حققتها الدبلوماسية الرومانية منذ سنة 211 ق.م، فإن ذلك لم يمنح الدولة القرطاجية من إرجاع هذا الملك إلى صفها في سنة 206 ق.م والتحالف معه(24).

ب- علاقته لمملكة الماسيل :

تميزت علاقة الملك صيفاقس بمملكة الماسيل بالتوتر حيناً وبالهدوء أحياناً أخرى، إذ يشير تيتوس ليفيوس "Titus Livius" دون تحديد تاريخ معين إلى الصراع الذي دار بينه وبين الملك الماسيلي غايا "Gaia" على منطقة حدودية، كما تدخل في سنة 206 ق.م في الاضطرابات التي شهدتها العرش الماسيلي عقب وفاة ملكه الثالث كابوسا "Capussa"، حيث قدم 15.000 المشاة و10.000 الفرسان لابن هذا الأخير المدعولاً كومازس "LACUMZES" ليوقف في وجه ابن عمه ماسينيسا "MASSINISSA" الذي كان يطالب بعرش المملكة، وتمكن هذا الأخير من إلحاق الهزيمة بغريمه، عقدت على إثرها معاهدة صلح، لم يعرّها الملك صيفاقس أهمية إلا أن القائد صدر بعل "HASDRUBAL" بين له خطأ موقفه مؤكداً له أن وصول ماسينيسا إلى الحكم لا يشكل خطراً على قرطاجة فحسب وإنما عليه أيضاً، فاجتاح صيفاقس مملكة الماسيل واستولى عليها بعد أن هزم ملكها ماسينيسا سنة 205 ق.م، وأقام حاميات بمدنها لكي يضمن الاستقرار بها(25).

ج- علاقته بالدولة القرطاجية :

يصعب تحديد بداية ونوعية العلاقة التي جمعت صيفاقس بالدولة القرطاجية، غير أنه يمكن أن نعتقد أنها تعود إلى بداية الحرب البونية الثانية (218 ق.م) وأنها شملت مجال التعاون العسكري كما سبق ذكره. والظاهر أنه في سنة 213 ق.م، اندلعت الحرب بينهما مما أدى إلى استدعاء القائد صدر بعل من اسبانيا(26)، وإذ يرى محمد البشير شنييتي أن سببها يكمن في

انحياز قرطاجة إلى غايا "Gaia" ملك الماسيل وقبولها بمطالبه الإقليمية(27)، يرجعها كامبس "G.Camps" إلى انتزاع صيفاقس لمناطق ساحلية تابعة للدولة القرطاجية وربما جزيرة رشقون (Portus Sigensis) (28).

لقد توترت علاقته بقرطاجة إثر تحالفه مع الرومان سنة 211 ق.م ثم استؤنفت سنة 206 ق.م، ورغم صعوبة معرفة دوافع انحيازه للقرطاجيين، فيبدو أنه كان من مصلحة هؤلاء المحافظة على هذا الحليف القوي، حيث زوجه سوفونيسب "Sophonisbe" ابنة القائد صدر بعل سنة 205 ق.م(29)، التي يفترض مشاركتها لزوجها في الحكم ضمناً، بحيث كان لها دور في توجيه الحرب ضد الرومان، كما يعتقد أنها كانت وراء إنشاء المعبد البوني بالحفرة بقسنطينة (Cirta) الذي سخر لعبادة الإلهة تانيت "Tanit" والإله بعل حمون "BAAL AMON"(30).

ومتجسدت مظاهر هذا التحالف في إعادته أراض كان قد انتزعها منهم غايا "Gaia"، كما أخذ على عاتقه الرد على الهجومات التي تعرضوا لها من طرف ماسينيسا "Massinissa" وفرسانه سنة 205 ق.م، وأرسل في سنة 204 ق.م مبعوثين عنه للقنصل الروماني سكيبو "P.Scpio" الذي كان بعسكر سراقوسة (Syracusa) - بجزيرة صقلية ليخبروه بانضمامه إلى القرطاجيين في الحرب(31). وشارك هذا الملك بموجب تحالف سنة 206 ق.م في المرحلة الأخيرة من الحرب البونية الثانية، إذ مجرد نزول الحملة الرومانية برأس سيدي المكي (Apollinis Promontorium) - الواقع شرق خليج السرت الصغير - بقيادة سكيبو في ربيع سنة 204 ق.م انضم إلى الجيش القرطاجي بقيادة صدر بعل على رأس 60 ألف جندي، ثم ساهم في رفع الحصار الذي فرض على مدينة برج بوشاطور (Utica) وتدخل في المناوشات الأولية بين الرومان والقرطاجيين التي أدت إلى هزيمة هؤلاء وحليفهم.

على إثر ذلك، أدرك صيفاقس الخطر الذي بات يهدد المنطقة بما فيها مملكته، ولهذا اتجه إلى سكيبو عارضا عليه التفاوض مع القرطاجيين لإنهاء الحرب، شريطة أن ينسحب القائد القرطاجي حنبل "Hannibal" من شبه الجزيرة الإيطالية التي كان يربط بها، ومقابل ذلك يعود القنصل الروماني بجيوشه إلى بلاده، فتظاهر سيكبو بقبول المفاوضات واستغلها للتجسس على معسكر العدو، بحيث أرسل جنوده ليضرموا النار في المعسكرين، فكانت حارثة بالنسبة للقرطاجيين وصيفاقس إذ فقدوا أكثر من 40 ألف قتيل ووقع أكثر من 5 آلاف في الأسر(32).

فر صيفاقس "Syphax" بعد هزيمته إلى مكان محصن يدعى أوبه (Obba) - نهجل موقعه الحالي - وعاد إلى مملكته بعد أن انضم إليه الناجون من الحريق، ثم جمع جيشاً مكوناً من 30 ألف جندي والتحق بمعسكر القرطاجيين بالسهول الكبرى، واستعد لخوض المعركة التي جرت سنة 203 ق.م لكنه لما أحس بقرب الهزيمة انسحب نحو قسنطينة (Cirta) تاركاً ساحة المعركة، فأمر سكيبو "P.Scpio" نائبه لاليوس "Laelius" وحليفهم ماسينيسا "Massinissa"

بمطاردته، غير أن صيفاقس دخل عاصمته دون صعوبة، وجمع تحت تأثير زوجته سونفونيسب "Sophonisbe" جيشا قويا ثم خرج مسرعا ليتعرض سبيلها وليحول دون محاصرتها لمدينة قسنطينة (Cirta)، لكنه انهزم في المعركة التي دارت بالقرب من المدينة ووقع أسيرا في يد ماسينيسا سنة 203 ق.م (33). وفي هذا الصدد، يذكر أن سوفونيسب توسلت ماسينيسا أن لا يسلمها للرومان فقرر الزواج بها، فعاتبه سكيبو على تصرفه، لأنها تعتبر عدوة للشعب الروماني ولا يحق لأحد أن يقرر مصيرها باستثناء الجمهورية الرومانية (34).

واختلف الكتاب في كيفية مصيرها، فحسب ديدور الصقلي "Diodore de Sicile"، يكون ماسينيسا قد سقاها كأس من السم، بينما يشير تيتوس ليفيوس "Titus Livius" أنه كلف أحد خدمه للقيام بذلك، في حين أبيانوس "Appianus" أنه سلمها للرومان (35). وإذا كان من الصعب التمييز بين الحقيقة والأسطورة في نصوص الكتاب القدامى حول الطريقة التي لقيت بها الملكة حتفها، فالذي لاشك فيه أن ماسينيسا اضطر للتضحية بها ليتمكن من استرجاع مملكته والمحافظة على صداقة الرومان (36).

وفاته :

نقل صيفاقس مع بعض قادته وأحد أبنائه من طرف لاليوس "LAELIUS" إلى روما، ثم أرسل إلى معتقل ألبا فونكنز (Alba Funcens) وبعدها إلى معتقل تيبور (Tibur) واختلف الكتاب القدامى في تحديد تاريخ وفاته بين من يجعله في سنة 202 ق.م (38) وبين من يرجعه إلى أبعد من ذلك (39). وعند وفاته أخذت الجمهورية الرومانية على عاتقها دفع نفقات دفنه (40)، مخلفا وراءه ثلاث بنات وولدين أحدهما أسر معه، والثاني اسمه فرمين "Vermina" وهو الذي حكم مملكة الماسيل من بعده (41).

الهوامش :

- 1- Polybius, III,3,15 Histoire, texte traduit et présenté et annoté par Roussel (D). Gruges-Belgique, Gallimard, 1970.
- 2- Titus Livius, xxv,48,1, Histoire romaine, texte traduit par Lassère (E). Paris, Garnier, 1928.
- 3- Camps (G), «Massinissa ou les débuts de l'histoire» Libyca, épigraphie-archéologie, VIII, 1960, pp 1-320, p 168 ; Nicolet (C), Desanges (J), Rome et la conquête du monde méditerranéen, T2. Paris, P.U.F, 1978, p 646.
- 4- Gsell (s) Histoire ancienne de l'Afrique du Nord (=H.A.A.N) T3, Réimpression de l'édition 1921-1928 Otto Vonzeller Verlagosnabruck, 1972, p98 ; Mazard (J) Corpus Nummorum Numidae Mauretaniaque. Paris, art et métiers graphiques, 1955, p18.
- 5- Mazard (J), Op.cit, pp 18-20 n 1-9.
- 6- Ibid, PP 20-21 n 10-12
- 7- Camps (G), op.cit, p293.
- 8- Strabon XVII, 3,9, géographie, traduction d'Amedée tradien. Paris, Hachette, 1886 ; Apulius XXIV Apologie, Florides Métamorphoses, Coll. Bude,Violette, 1954.
- 9- Plinius, V, 19, Histoire Naturelle, V,Texte établi traduit et commenté par Desanges (J). Paris, Les Belles Lettres, 1980.
- 10- Titus Livius, xxx, 12,4 ;44 ;12.
- 11- Gsell (S), H.A.A.N, T5, p100.
- 12- Camps (G), op. cit, p 168; Nicolet (C), Desanges (J), op.cit, p 646.
- 13- Mazard (J), op.cit, pp 18-21 n 1-12.
- 14- Ibid (J), pp 21-22 n 1-4.
- 15- Gsell (S), H.A.A.N, T5, p 175.
- 16- Titus Livius, XXIV, 48, 1.

17- Gsell (S), H.A.A.N, T3, p 181.

محمد البشير شنييتي، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب القديم (سياسة الرومانية 146 ق م – 40 ق م). الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 23.

18- Titus Livius, XXV, 34, 1 ; XXXIV, 17 ; XXXIV, 49.

19- Mazard (J), op.cit, pp 21-22 n 10-12.

20- Ibid, p 17 ; Camps (G), op.cit, p 168.

21- Titus Livius, XXVIII, 17-18; Strabon, VII, 3,9

22- Nicolet (C), Desanges (J), op.cit, p 647.

23- Titus Livius, XXVII, 18,2.

24- Ibid, XXVIII, 17, 18.3

25- Ibid, XXIV, 48, 12 ; XXIX, 31,4, XXX, 11, 12,XXX ; 30, 10-11.

26- Ibid, XXIV, 48-49.

27. محمد البشير شنييتي، المرجع السابق، ص 22

28- Camps (G), « Les numides et la Civilisation punique », Ant. Afr, 14, 1979, p 47.

29- Titus Livius, XXVIII, 17, 16, XXIX, 23, 4 XXVII, 17, 16 ; XXIX, 23,4.

30- Berdrandy (F), « Cirta », Encyclopédie Berbère, XIII. Aix en Province, Edisud, 1989, P 1967.

31- Titus Livius, XXIX, 23, 7-10 ; 24 ;32 ;3-4

32- Polybius,XIV,1,9, XIV, 2,3.

33- Ibid, XIV, 6,12 ;XIV, 7,4, 8-9.

34- Titus Livius, XXX, 12,6-10, 14-15.

35- Ibid, XXX, 14,15.

36- Gsell(S), H.A.A.N.T3, p 240.

37- Berdrandy 5F), op.cit, p 1966.

38- Titus Livius, XXX, 16,1,7 ; XXX, 17, 2.

39- Polybuis, XVI, 23,3 ; Silius Italicus, Les guerres Puniques, XVII, 629, traduction en français publiée sous la direction de Nisard (M). Paris, Dubochet, 1938.

40- Titus Livius, XXX, 45, 4.

41- Gsell (S), H.A.A.N, T3, p 197 n2.